عبدالامير الركابي *

موت او اختفاء خامنئي.. صمود نجاد.. ومراوحة رفسنجاني:

حتى الاقدار لا تلعب لصالح بوش

■ تقول بعض الاوساط العليمة، ان الوضع الصحي لمرشد الثورة الاسلامية في ايران، سيىء للغاية، وقد لا يرجى منه شفاء، وهذا النبأ بحد ذاته، يكفي لاثارة حالة من التوتر الشديد المكبوت داخل النخبة الايرانية الحاكمة، وبالاخص بين ممثلي التيارات الاساسية. بعض الاوساط الصحافية، ومنها صحف عالمية، اشارت قبل ايام الى تراجع حظوظ السيد احمدي نجاد، وقد بنى هؤلاء تقديراتهم بالاستناد الى بعض المظاهر المتأخرة، ومنها جولة الانتخابات البلدية، والتي بينت ان الايرانيين لا يأكلون من «التطرف النووي» وهو ما انعكس على خياراتهم الانتخابية، غير ان بعض من يعرفون آليات السياسة الايرانية، لم يصدقوا ما حدث على هذا الصعيد، ولان مسألة انتصار احمدي نجاد في الانتخابات الرئاسية، قد تحققت فجأة وبلا مقدمات، فلقد اعتبر هؤلاء ان فشل نجاد الحالي تقف وراءه نفس الايادي، وان الامر برمته منوط بقرار صادر عن جهات عليا، ومن هنا تسربت نظرية تم تداولها مؤخرا، تقول بان احمدي نجاد مهيأ للذبح، وانه على وشك ان تتم التضحية به عند محراب «النووي» الذي بالغ هو كثيرا في التمسك به، وبصخب ثوري، لم يعد الآن مناسبا.

بعض ظلال هذه النظرية، صادرة عن تخمينات، محفوفة بمرض المهنة المعروف لدى كتاب ومحللين، لا يستطيعون مقاومة اغراء الاستباق الصحافي، ولا شك ان هؤلاء قد وضعوا باعتبارهم الانباء عن احتمالات تعرض ايران لضربة عسكرية امريكية وشيكة، لا يوجد ما يبرر على الجانب الايراني تحملها، او اهمال البحث عن طريق من شأنه ان يؤدي الى ابعاد شبحها، وقد افترض هؤلاء بعجالة، ان ازاحة «نجاد» قد تكون احدى اهم الوسائل التي تؤمن لايران السلامة، خاصة اذا هي ربطت غياب الرئيس المتصلب، بمرونة واضحة على هذه الجبهة.

غير ان الاقدار يمكن ان تلعب في بعض الاحيان لعبة تخرب الملعب، وتحير من يتهيأون للنزول اليه، موت مرشد الثورة الايرانية في هذه الايام مثلا. انه الآن طريح الفراش، ينازع كما يقال، بينما جيوش الاعداء تحت القلعة، وثمة على بابه ثلاثة يتناوبون على الامساك برسغ يده اليسرى، متحسسين نبضات قلبه الضعيف المنهك: خاتمي ورفسنجاني واحمدي نجاد، ثلاثة عمائم، ورجل ببدلة من دون ربطة عنق، هو الوحيد الذي يمثل برغم غرابة هيئته، ظل الزعيم والقائد، فالخميني بين خاتمي ورفسنجاني يغطى معظمه تحت عباءات سوداء، وخاتمي مغادر الى العالم الآخر، بينما نجاد يعرف بان القدر متحالف معه، وان شيئا من روح الخميني قد حلت عليه، وجعلته يفلت من قبضة الموجودين الثلاثة، رفسنجاني الذي يتهيأ لمد الحبل الى الضفة الاخرى حيث يقف بوش واوروبا، وخاتمي قوة الاحتياط وقطب التوازن التنويري المنفتح، وخامنئي وريث الامام الذي بدأ يقتنع عند اعتاب الموت، بضرورة اعادة المهر الجامح الى حظيرته، هل كان المرشد يتهيأ بالفعل لكي يرفع يده مناديا «يا نجاد عد الى بلديتك»، مهما يكن فهو الآن لم يعد يستطيع سوى الايماء بعينيه.

يوم الجمعة الفائت، القى رفسنجاني المشهود له بالدهاء، خطبة قال فيها، بانه من اللازم استخدام لغة اكثر حكمة، في الحديث عن النزاع النووي وكرر نصا «يجب استخدام الخطاب باسلوب اكثر حكمة حيث ان الوضع الحالي ليس طبيعيا» وقد اعتبر هذا الجزء من الخطاب، بمثابة تعليق مباشر على ما صرح به احمدي نجاد تعليقا على قرار الامم المتحدة الاخير، حين قال، مذكرا ايانا بلغة ماو تسي تونغ، عن النمر الذي من ورق: «ان القرار مثل ورقة ممزقة»، ولكن حتى التلفزيون الايراني قال معلقا على لغة نجاد بانها: «لغة قاسية وعاطفية وغير علمية»، الا ان خطاب هاشمي رفسنجاني على العموم كان مرتبكا، ومن الصعب القول بانه من نوع الخطب التعبوية الناجحة، فالتردد والاستدراك لا يؤديان لاقناع الجموع، في احوال معقدة ومصيرية، كالتي يتصدى لها اليوم كبار السياسة الايرانية، لقد ذكر بان تهديدات امريكا ربما تكون مجرد حرب نفسية، وان على ايران ان تنقل تلك الحرب الى ساحة امريكا، لان اوضاع الادارة الامريكية سيئة، الا انه لم يوفق في تقديم اقتراح مفيد ومحدد، او اكثر فعالية من خطاب نجاد، اما خاتمي فلقد وضع نفسه بعيدا، ليحاكي اوساطا لا علاقة لها بالرأي العام الايراني، وحين اراد ان ينتقد «نجاد»، ذهب الى جريدة «يديعوت احرنوت» ليصرح لها من دافوس، منتقدا تنظيم ايران لمؤتمر حول المحرقة اليهودية فقال: «اندد بشدة بعقد هذا المؤتمر ان المحرقة ضد الشعب اليهودي مثلت اشد الجرائم التي ارتكبت في عصرنا ضد الانسانيه ولا يوجد ادنى شك بانها قد حدثت»، وهنا يمكن لنجاد ان يكتفي بالصمت، لان رئيس الجمهورية الاسلامية الايرانية السابق، تجاوز كل حد في الاضرار بنفسه، حين اقدم على خطوة من خطوات «التطبيع مع العدو»، عن طريق التعامل مع احدى صحفه الكبرى، وهذا تصرف غير مقبول على الاطلاق، وينطوي على خفة، اين منها خفة «نجاد» التي يتناوب المعتدلون اليوم على التعريض بها.

من بين الذين اشاعوا الانطباع عن تراجع مكانة ونفوذ احمدي نجاد، صنف من الكتاب المعتادين على حبس النظر داخل زاوية واحدة من المشهد، وهي طريقة في التحليل تذكرنا بزمن مضى، ومع اضطراب المشهد العالمي واحتشاده بالاحداث والمعطيات والمتغيرات، لم تعد النزعات الباقية من زمن الايديولوجيات، تصلح خلفية للنظر في الشؤون الاقليمية او العالمية، او حتى الوطنية الملحة، ومع ذلك فاننا نسمع الآن اصواتا تقول بان ايران قد عقدت عزمها على المهادنة، وان صعود اصوات «المعتدلين»، و«الحكماء»، يناظره من ناحية اخرى، الاتجاه الملاحظ الى مد خيوط التفاهم مع اطراف مثل المملكة العربية السعودية. وهنالك تفسيرات متضاربة حول تحركات لاريجاني وزياراته، او حول زيارات مسؤولين سعوديين الى ايران، لكن القسم الاكبر مما يكتب بهذا الخصوص، مكرس للاشارة الى «تراجعات ايران» امام الضغط الامريكي، من دون فحص احتمالات اخرى، منها مثلا، احتمال التقاء انصاف من هنا، مع انصاف من هناك، نصف سعودي لا يقبل بتوجهاته جزء من النخبة الحاكمة في المملكة، مع نصف ايراني، لم يصل بعد الى لحظة الامساك بالقرار الايراني، والدلائل والمعلومات ليست قليلة عن الانشقاق السعودي الداخلي، لا بل ان التقارير المكتوبة عنه والمتسربة، اكثر بكثير من تلك التي بدأت تنوه اخيرا بمظاهر الانشقاق الايراني، واذا ما اخذنا بكل ما يرد حول الموقف السعودي، الراغب في التفاهم مع ايران، فاننا سنقرأ تصورا آخر للتوازنات، ولمسار الوضع الاقليمي والدولي.

اذ يقال بان بعض الحكم في المملكة العربية السعودية، لم يعد يعول كثيرا على الولايات المتحدة الامريكية، وليس لديه الثقة بها وبسياساتها على المدى البعيد، وان العالم ربما يكون مقبلا في وقت ليس بالبعيد، على لحظة من لحظات عودة اجواء «الحرب البارده»، وروسيا والصين بدأتا تعطيان اشارات قوية توحي بذلك، بعض تلك الاشارات عملي واستراتيجي يصب، واي مدقق في المتغيرات المتوقعة، لا بد ان ينتبه لظاهرة استثنائية تماما، تصب في هذا المنحى، فالتململات اليابانية تبدو غريبة تماما، ومع تكرار اعلان الحكومة اليمينية في اليابان عن زيادة دورها في اسيا، فانها قد اتخذت مؤخرا خطوات ملفتة في مجال تعزيز علاقتها الاوروبية، وكان من الغريب جدا ان يبادر وزير الدفاع الياباني قبل ثلاثة ايام، مصرحا، بان قرار احتلال العراق كان خطأ، وان اليابان تريد الخروج كليا من العراق، ملمحا بذلك الى دور سياسي، لم يكن بالامكان تخيله في الماضي، وقد يكون الوضع العالمي يقترب بالفعل من مشارف او بدايات انقلاب يعيد التوازن الى الوضع الدولي، ويخفف من وطأة التفرد الامريكي، وهذا الاحساس المتنامي في الاوساط العالمية لا يساعد على استمرار المراهنات المبالغة على السياسة والدور الامريكي، وهو لا يجعل بالمقابل طرفا مثل ايران، في وضع اضعف، وكل من يتعرف على هذه الحقائق، يتمتع ولا شك برؤية اوضح، تساعده على ان يحكم على بعض التحركات الاقليمية الاخيرة، وبالذات الايرانية ـ السعودية بقدر اكبر من الصواب.

لماذا اذن اثيرت موجة التشويش على موقع احمدي نجاد وبأي قصد؟ من المحتمل ان تكون قوى «المعتدلين» داخل ايران، قد وجدت فرصتها او فرصتها الاخيرة، ممثلة بمظاهر التحشد والجعجعة الامريكية المسموعة اصداؤها في العراق والخليج العربي الآن، وقد يكون هنالك ما هو ابعد، فالمشروع الاستراتيجي البديل «شيعيا»، والمتمثل في اعتماد النجف والسيستاني محل ايران كقيادة «مرنه» للشيعة عربيا واسلاميا، له من يمثلونه هناك على الطرف الايراني، وكما ينتقل او انتقل عبدالعزيز الحكيم مؤخرا، من حضن ايران الى الخيمة الامريكية في اطار المشروع الجديد، من المحتمل ان يكون رفسنجاني او غيره من رموز الاعتدال او الاصلاح، يتهيأون حاليا، ولو باعتبار التعامل مع التطورات المقبلة على بلادهم، كأمر واقع، فيستعدون، لكي يتصدروا المشهد في حال تعرض بلادهم لضربة عسكرية، تؤدي الى اضعاف النظام، او يفكرون باحتمال العودة للامساك بالسلطة، وازاحة تيار المتشددين على وقع التهديدات الامريكيه... اذن ليست ايران ايران واحدة، كما ان السعودية ليست سعودية واحده.

هل اقتنع خامنئي فعلا بوجهة نظر «المعتدلين»؟ لا شيء يجعلنا نعتقد بان شيئا كهذا قد حدث، وفي كثير من الحالات، كان المرشد يظل صامتا ثم ياتي يوم ويطلق رأيه، وهو لم يفعل اليوم ما يحسم الموقف، وقد لا يفعل او لا يستطيع، وقد يلجأ هو لإطالة مدة غيابه بـ «داعي المرض»، قبل ان يقرر النهوض على قدميه، ويحسم الجدل الدائر بين ممثلي التيارات الابرز، اما اذا كان مرضه ميؤوسا منه، فانه على الارجح لن يجازف بقول كلام لن يسمعه احد، وسيترك الثلاثة الواقفين على بابه يتدبرون امورهم، ملقيا على كاهل احمدي نجاد، مشقة احراز موقعه بالجدارة، بعد ان ظل حتى اليوم موجودا بقوة دعم المرشد ورضاه، غير ان هذه اعظم الفرص، التي كان يمكن لنجاد ان يتوقعها او يحلم بها، فغياب المرشد الداعم والراعي، هو في ذات الوقت، اختفاء لخطر لا يرد، فلو ان خامنئي ظل حيا ويمارس مهامه، وقال لنجاد «عد الى بلديتك يا بني» لرضخ نجاد فورا ولم يجادل، اما وان الاقدار قد لعبت لعبتها، ووضعت المرشد في فراش المرض، فان الخروج من الحلبة لم يعد مطروحا، وبعد وقت ليس بالبعيد سنرى نجاد وقد نبتت له انياب وتمنطق بدرعه وحمل سيفه.

ولن ننتظر على الارجح كثيرا، فما شهدنا من دلائل على عزيمة الرجل يكفي، ولا شك انه يجري الان حسابات للموقف، فلا يجد امامه سوى ان يتحرك الى امام وقد توج زعيما، فالتيار المتشدد الذي ينتمي اليه، سيجد نفسه احوج ما يكون الى مقاتل يتصدر المعركة، لان غياب المرشد سيعني لهؤلاء خسارة كبرى لا تعوض، علما بان رفسنجاني سيركز جهوده على الموقع الاول الآيل للفراغ، اي انه سيحاول ان ينتزع من يد خصومه، درتهم التي سيقاتلون دونها بايديهم واسنانهم، ومن هذه الناحية الشديدة الحساسيه، سيتوقع نجاد الدعم الصلب والواسع، له ولموقفه، بينما سيكون على رفسنجاني ان يعيد بسرعة حساباته، وقد يفكر بالتراجع، اذا كان لديه الوقت او المجال لكي يفعل ذلك، فهل سيركب الموجة، ويقرر تبني شعارات المتشددين وموقفهم، وهل يميل الى مقايضة منصب المرشد الاعلى، ببقاء نجاد بموقع رئاسة الجمهورية، في كل الاحوال، لن يكون بمقدوره الاستمرار على النهج الذي افصح عنه مؤخرا، لان المتشددين ونجاد بمقدمتهم، سوف يضعونه وتياره بخانة من يعرضون «معنويات الأمة» للاهتزاز، هذا اذا لم يروجوا حولهم اتهامات بالتواطؤ مع الشيطان الاكبر، اما خاتمي، فانه سيلتزم من هنا وصاعدا الصمت، ويظل يتلقى النتائج من دون مبادرة، لانه لا يملك القدرة ولا الاوراق الضرورية للمناورة ضمن اجواء مشحونة وخطرة، هو ليس مؤهلا بتركيبته الشخصية للانغماس فيها.

في جميع الاحوال، لا يبدو ان المشهد الايراني يناسب تقديرات او احلام الرئيس الامريكي، وتوقعاته تتجه مجددا نحو الاصطدام بحقائق مخالفة كليا وعنيدة، وقد يكون عناد القدر هذه المرة هو الذي سيحبط مخططاته، فصمود نجاد سيكون اقرب الى خطوة اخرى باتجاه بعث «الخمينية الثانية»، وتحرك المتشددين، سيكون محكوما باضافة جرعة اخرى من التشدد، يترجم حتما في العراق بصورة تحرك مضاد، من حدوده الدنيا، عدم السماح بتصفية تيار الصدر، او اضعاف موقعه في المعادلة السياسية، مما يعني قبر مشروع عبدالعزيز الحكيم ومحاصرته، اما بالحد الاقصى، فالتوقعات قد تأخذنا الى ما وراء ايران والعراق، نحو روسيا والصين، اما في العراق، فنحو احتمال حصول انقلاب في المواقف، ومتغيرات بصالح قضية تحرر العراق ووحدته، وهو هدف يحتاج بالطبع الى جهود كبيرة وطنيا، داخل العراق واقليميا، انما المهم هو ان الاقدار لا تعمل الآن لمصلحة بوش واستراتيجيته في ايران والعراق، وهذا بحد ذاته نبأ جيد.

* كاتب من العراق يقيم في باريس

قراءة في مجريات الوضع العراقي بعد اعدام صدام حسين

أسعد محمد حسين*

■ بعد انقضاء ما يزيد على الشهر على اعدام الرئيس الراحل صدام حسين، قد يبدو للبعض وكأن اعدامه مر مرورا عابرا بدون ان يسبب تأثيرا حقيقيا على مجرى الوضع السياسي في العراق. الا ان واقع العراق وكما نعيشه يوميا يشير الى العكس.

كان نظام صدام حسين متهما بالكفاءة في تجميع الاعداء وتخويف الاصدقاء. يبدو ان هذه الميزة ذاتها من خصل النظام الحالي اذ انه يحمل كل اخطاء نظام البعث ان لم يزد عليها.

ان الادارة الامريكية تراكم الاعداء او معارضي سياستها في العراق والشرق الاوسط عموما. ولنأخذ اعدام رئيس العراق السابق صدام حسين كمثال. سنجد بان القرار المستعجل وتنفيده سرعان ماتم استنكاره من قبل كل الذين ايدوه. ولم يكن هذا محض صدفة. ان طريقة الاعدام وتوقيته وتنفيذه وعرضه على شاشات التلفزة كان يحمل رسالة واحدة وهي عدم احترام مشاعر الناس وعواطفهم وانسانيتهم. خاصة وانه قد تم تنفيد الاعدام يوم عيد الاضحى، العيد الاكبر للمسلمين وخلال شهر يحرم فيه القتال والقتل. لقد ادى ذلك الى الهاب مشاعر اغلبية العراقيين والاغلبية الكبرى من العرب والمسلمين في جميع انحاء العالم. ان ادعاء ان صدام نفسه لم يكن يحترم هذه المناسبات ليس عذرا اطلاقا. خاصة اذا كانت هذه الاعذار صادرة من اشخاص يدعون بانهم اسقطوا صدام لارتكابه اخطاء وجرائم مماثلة.

لقد نجح صدام في المشهد الاخير من المحاكمة الكوميدية في ان يصبح بطلا وشهيدا للبعض، ورجلا عومل بطريقة غير عادلة بالنسبة لاخرين. الا ان الاغلبية اجمعت على انه ما كان يجب ان يعدم بتلك الطريقة وفي ذلك اليوم.

ان اخطر ما ترتب على الاعدام هو اثارة المشاعر الطائفية بين العراقيين. ان العديد من التحليلات يؤكد بان الاعدام كان قد قد نفذ بهذه الطريقة السريعة لتحقيق هذا الغرض بالتحديد. ومهما كانت ردود الافعال متضاربة الا ان ترجمتها على ارض الواقع يعني عمليا اثارة الكراهية والاقتتال الطائفي. خاصة وأن الرئيس الراحل كان قد اهين من قبل افراد ميليشيا شيعية معينة وان انكرت الميليشيا فيما بعد ما حدث ورفضت تحمل المسؤولية. بل ان متحدثها اعلن بان ذكر اسم قائدها واستخدام شعاراتهم كان لاستهدافهم من اجل تشويه سمعتهم ومن اجل تبرير التحرك الامريكي المستهدف لتصفيتهم.

مما ترك الحكومة العراقية وحيدة في النهاية لتدافع عن القرار وتنفيده. من الواضح ان هذا القرار قد اتخذ في فترة تصاعد وتسارع العنف الطائفيين وكما تبين كانتقام على قرار اتخذه الرئيس الراحل ضد طائفة معينة نتيجة تعرضه لمحاولة اغتيال استهدفت حياته. ففسرتها الطائفة الاخرى باعتبارها انتقاما ودعما لايران باعتبارها الجهة التي كانت وراء محاولة الاغتيال على حياة الرئيس الراحل.

لقد كان من المتوقع بعد اعلان الحكومة الحالية بانها تعمل بقوة من اجل المصالحة الوطنية بان تؤجل الاعدام الا انها فعلت العكس. يتهم بعض المحللين اسرائيل بانها مسؤولة بشكل غير مباشر عن القرار وان القوى الاقليمية كانت تدفع بقوة لتنفيد الاعدام وذلك لسببين الاول لمعاقبة الرئيس الراحل على جرأته في استهداف اسرائيل بالصواريخ في عام 1991. وهي الخطوة التي حطمت حاجزا سايكولوجيا نجحت اسرائيل في ترسيخه بين العرب. وثانيا لزيادة وتعميق التقسيم الطائفي بين العراقيين الذي سيؤدي في النتيجة الى تقسيم العراق الى ثلاثة اقسام. بينما اتهم اخرون ايران بانها القوة الاقليمية المشجعة والمسرعة لتنفيذ الاعدام كانتقام عادل ضد اندحارها في سنوات الحرب الثماني تحت حكم صدام حسين. بينما يرى آخرون بان القرار بكامله هو قرار امريكي وهو مقدمة للاستراتيجية الجديدة التي كان بوش على وشك الاعلان عنها.

ومهما كانت هوية المسؤول عن اتخاذ القرار، فقد نجح في تلميع صورة الرئيس الراحل وتوسيع الهوة بين المذهبين العراقيين الرئيسيين. وستحتاج محاولات المصالحة الى جهود اكبر وليس هناك ما يشير الى نجاحها.

هذا القرار بالاضافة الى فشل الحكومة الطائفية الحالية في حل المشاكل اليومية المتفاقمة للعراقيين سيعجل في اسقاط الحكومة. وحتى السيد بوش نفسه بات يحمل الحكومة اي فشل مستقبلي لاستراتيجيته الجديدة.

ان غياب اي قوة عراقية موحدة سيؤدي الى استمرار العنف الطائفي مما سيؤدي، لامحالة، الى العنف ضمن افراد الطائفة الواحدة بمعنى اقتتال الشيعي ضد الشيعي والسني ضد السني. وهو بالضبط ما تطمح الاستراتيجية الامريكية الى تحقيقه.

* اكاديمي من العراق

بوش يقرأ التجربة الجزائرية لحل مشاكله في العراق

د. محي الدين عميمور*

■ منذ أسابيع قليلة جاءتنا أنباء نسيناها مع زحمة الأحداث تقول بأن أصدقاءنا الأمريكيين عاكفون على دراسة فيلم «معركة الجزائر» علهم يتمكنون من استخراج العبر التي تمكنهم من كسب معركة العراق، وبالفعل عرفنا أن نسخة سافرت إلى بلاد العم سام وقيل ان واحدا ممن ارتبط اسمهم بالمعركة سافر إلى هناك ليوضح ما يُمكن أن يخفى على الباحثين في البنتاغون وبروكينز وبقية المراكز الدراسية التي أقامها العم سام، جنبا إلى جنب مع مخابر لعبة الأمم سيئة الذكر.

ثم سمعنا بالأمس أن الرئيس جورج دبليو بوش (الصغير) يعكف على قراء كتاب صدر في السبعينيات تحت عنوان «حرب همجية من أجل السلام» Savage war of peace ألفه الكاتب الإنكليزي ألستير هورن Alistair Horne عن الثورة الجزائرية.

وبغض النظر عن أن الرئيس الأمريكي ليس ممن عُرف عنهم حب القراءة أو المقدرة على دراسة كتاب كبير يصل حجمه، مع الهوامش، إلى نحو ستمائة صفحة، فقد فهمنا بالطبع أن هناك محاولات أمريكية للخروج من الوحل العراقي، الذي أصبح أسوأ من الوحل الفيتنامي، وهو ما كنا حذرنا منه خوفا على المنطقة من تبعاته، ولكننا كنا نصرخ في واد، وذهبت أدراج الرياح محاولات الرئيس الشاذلي بن جديد، ذكره الله بكل خير، لتفادي الخروج من النتائج المأساوية لغزو الكويت بنتائج أكثر مأساوية .

وعرفنا اليوم أنه قيل للرئيس الأمريكي بضرورة دراسة التجربة الجزائرية لأنها تتشابه مع التجربة العراقية، وكان هناك من أوحى له، ولعله هنري كيسنجر، بأن في مقدوره، إذا تمكن من إيجاد الحل، أن يعتبر صنوا للجنرال الفرنسي شارل ديغول، وأتذكر الآن بيت شعر كانت تردده شقيقتي المتوفاة منذ عشرين سنة الأستاذة مريم عميمور يقول ما معناه ان «السيف يفقد قدره إذا قلت أن هذا السيف خير من العصا».

وكنت ممن استقبلوا أليستر هورن في الجزائر بصفتي مستشارا للرئيس الراحل هواري بومدين وذلك مع عديد من الكتاب والمفكرين العالميين الذي كانوا يبادرون بزيارة الجزائر أو كنا ننظم زياراتهم للإطلاع في عين المكان على الجزائر الحديثة أو كنا نستقبلهم كممثلين لمنابرهم الإعلامية فنحسن وفادتهم وندعم جهودهم بما جعل من الجزائر يومها، وبفضل حيوية قيادتها الثورية، كعبة للأنظار وللثوار.

ولعلي أذكر من بين من عرفتهم جيدا آنذاك السيد بول بالطا، مراسل صحيفة «لوموند» الفرنسية، الذي يؤكد لي برنامج شارك فيه مؤخرا بأننا نجحنا في كسب صداقته، وهو ما يبرر تسمية أطلقها عليه البعض في السبعينيات هي «محمد بالطا»، ويشرح لبعض من كانوا يأخذون علي في السبعينيات رعايتي للمراسلين الأجانب مدى ظلمهم لي، وخصوصا منهم من لم يبادر حتى اليوم بأي عمل لتسجيل مآثر تلك المرحلة..

وكان «ألستر هورن» كريما فوضع اسمي وعددا من الرفاق الذين التقى بهم في مقدمة كتابه، ثم انقطعت بنا السبل بعد الأحداث التي عرفتُها وعرفتَاها.

ويبدو أن هورن أهدى كتابه لوزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد ليستفيد من بعض معطياته، وأشار له خصوصا للمقاطع التي تناولت عمليات التعذيب مبرزا مدى إساءتها لفرنسا وفعالية دورها في إنهاء وجودها بالجزائر، ولكن رامسفيلد أجابه بفظاظة الأحمق الذي يتصور أنه يعرف كل شيء إلى أن اكتشف، وهو خارج المسؤولية، أنه لم يفهم شيئا على الإطلاق.

وقد يبدو أن هدف كيسنجر من التذكير بضرورة دراسة وقائع الثورة الجزائرية هو محاولة اكتشاف السر وراء تمكن الجزائر الصغيرة الضعيفة من الانتصار على أكبر قوة عسكرية وسياسية في المتوسط، ثم تطبيق النتائج على الوضعية في العراق حيث غرقت الولايات المتحدة في الوحل العراقي بشكل أصبح يثير مزيجا من السخرية والرثاء، وبحيث أصبح بوش أسوأ الرؤساء الذين عرفهم العالم ومثالا للجهل والغباء والعناد.

لكنني أتصور أن المطلوب هو دراسة التجربة الفرنسية في الجزائر وليس العكس، وربما تم هذا بالفعل عبر دراسة الوثائق الفرنسية العسكرية والمدنية ووثائق الحلف الأطلسي، لكن هذه كانت محدودة الفعالية، ولم يتمكن الفرنسيون من فهم طبيعة الثورة الجزائرية وأساليب عملها، ولسبب بالغ البساطة هو أن الثورة تميزت بالانضباط والسرية، وكان هذا من أهم أسباب النصر، وحاولت المؤسسات الفرنسية بعد استرجاع الاستقلال أن تواصل عملية دراسة كل معطيات الثورة، لتتمكن من التعامل مع جزائر الاستقلال عن غير طريق «الحركى» الجدد، الذين كان هناك في فرنسا من يراهم صورة القوة الثالثة التي أرادها الجنرال ديغول، وبالتالي فقد تصوروا أنهم يملكون كل المفاتيح، وكان هذا خطأ جسيما تسبب في عشرات المواعيد الضائعة بين البلدين، ومنها موعد منتصف السبعينيات عندما تمت زيارة جيسكار ديستان، غير المأسوف عليها.

ولا بد من الاعتراف بأن المصادر الجزائرية النقية كانت مترددة في غياب تنظيم شامل ينسق التعامل مع الآخر، وكان حجم الكتابات الجزائرية عن مرحلة الثورة محدودا جدا، وهكذا بدأت الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الفرنسية تبذل جهودا حثيثة لتشجيع الطلاب الجزائريين على إعداد بحوث عن الثورة وعن معطياتها من واقع استجواب المجاهدين والمناضلين، وكنت أتابع ذلك بتوجس وريبة، رغم أن البعض كان يرى فيه مدعاة للافتخار، وكتبت أكثر من مرة محذرا من خطورة الحديث مع الكتاب الأجانب خارج إطار منضبط ولكنني اتهمت بأنني أنتمي لمن يريدون مصادرة التاريخ.

وتأكد لي يوما بعد يوم أن الجانب الآخر لم يتمكن من معرفة كل شيء عن الثورة لأن التحفظ كان سيد الموقف من جهة، ولأنه، من جهة أخرى، ليس هناك من يعرف كل تاريخ الجزائر، لأن تنظيم الثورة بشكل لامركزي دفن الكثير من أسرارها مع الشهداء.

ويُضاف إلى هذا عنصر بالغ الأهمية، برز قبل ذلك في فيتنام وستعرفه جلّ حركات التحرير، وهي أن الثورة لم يقم بها ضباط وجنود نظاميون يطبقون أساليب الحرب النظامية التقليدية التي درس العدو كل تفاصيلها في الكليات العسكرية والمعاهد الاستراتيجية، بل كانت وليدة شعب يُمارس رجاله كفاحهم أولا بأول وعن طريق التجربة والخطأ والابتكار المحلي، وهو أسلوب أربك القيادات الاستعمارية المتمرسة.

وهذه النقطة الجوهرية غير موجودة في كتاب هورن أو غيره، وببساطة، لأن المجاهدين كانوا يتعففون عن الإشارة لها أو التوقف عندها، وهذا هو، في نظري، سر عدم فهم الكثيرين لمعطيات الثورة الجزائرية.

ولقد قيل لبوش ان من أهم عناصر التشابه هو أن الجزائر والعراق بلدان عربيان يخوضان تجربة متماثلة، وإن كانت المقاومة في الجزائر أخذت شكل حرب تحرير فإن المقاومة تتخذ منحى طائفيا في العراق، وهي مقارنة ساذجة لأن الفروق أعمق من ذلك.

فالشعب الجزائري كان موحدا تحت لواء جبهة التحرير الوطني التي كانت تقود الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي الاستيطاني بأسلوب سيادي لم يسمح لصديق أو لشقيق بالتدخل في شؤونه، رغم كثرة المحاولات في مرحلة معينة. وكانت الجبهة هي المتحدث الوحيد باسم الثورة.

ولم تكن في الجزائر تجمعات عرقية تعمل على ابتزاز القيادة المركزية للحصول على وضعيات حالية أو مستقبلية تتناقض مع منطق الوطن ـ الأمة وتجد في الاحتلال حليفا يمكنها من ذلك، ولم يكن هناك مستفيدون من أموال النفط المسروق. ولم يكن للموساد أو لغير الموساد من مخابرات العالم كله دور في الجزائر.

ولقد وضع «ديغول» كل ثقله العسكري (شال والنظارات المعظمة) والاقتصادي (مخطط قسنطينة) والاجتماعي الثقافي (عمليات تكوين إطارات جزائرية تشكل نواة لما سُمي آنذاك بالقوة الثالثة، التي تُعطَى الفرصة لكي تحل محل المستعمر وعملائه المباشرين، حتى لا يبقى المستقبل حكرا على المجاهدين).

لكن الجنرال وصل إلى اليقين، كما يقول في مذكراته، بأن الاستقلال آت لا ريب فيه بفضل عزيمة الشعب الجزائري، ولذا فمن الأحسن أن يقبل بالأمر الواقع، مع التركيز على إعداد القوة الثالثة التي ستمسك في أيديها بزمام الحكم في بلد وصل حجم الأمية فيه إلى نحو 92 في المائة، في حين لم يكن يعرف الأمية عند الغزو الفرنسي.

وأنا أعتقد أن فكرة القوة الثالثة هي المحرك الحقيقي لمحاولة الأمريكان الاستفادة من تجارب فرنسا، والمشكلة أن ما يُمكن أن يكون قوة ثالثة في العراق وضع نفسه منذ اليوم الأول في خدمة الاحتلال وأصبح جزءا منه، وهو ما لم يحدث في الجزائر خلال الثورة.

ولقد سئلت عمّا إذا كان بوش يريد أن يتشبه بالجنرال الفرنسي وقلت ليته يفعل ذلك، رغم إدراكي للفارق الكبير بين بطل فرنسا الحرة، الذي قاد عملية تحرير بلاده من الألمان، والرئيس الذي يتصور أنه يتلقى الوحي بعد أن تاب عن تعاطي المسكرات، والذي يُمثل لعبة في يد عدد محدود من المستشارين وخصوصا المستشارات.

لكن دراسة التجربة الجزائرية يُمكن أن تكون إيجابية بالنسبة للمنطقة كلها إذا فهمت أمريكا بأن الاحتلال لا يُمكن أن يدوم، وبأن إرادة الشعب تفرض نفسها على الجميع بمن فيهم المتعاونون مع المُحتل الأجنبي، وبأن كل يوم يمرّ على الاحتلال يُساهم في تعميق الكراهية وزيادة الأحقاد، خصوصا وقد بدأ الشارع الأمريكي يتحرك، تماما كما حدث في فرنسا، والطبقة السياسية تنقسم على نفسها، تماما كما حدث في فرنسا.

ولعلي أختم هذه السطور بالاعتذار عن بعض ما يراه البعض تكرارا مملا ولكنني أتصور أن علينا أن نواصل استعراض أحداثنا العربية، كل من الموقع الذي عاشها فيه، لأن هذا هو واجبنا أمام الجيل الصاعد الباحث عن الحقائق تحت ركام «العجرميات».

* عضو لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان الجزائري

أمقاومة وجهاد في سبيل الله والوطن أم في سبيل السلطة؟

د. إبراهيم أبراش *

■ ما يجري في مناطق السلطة أمر خرج عن كل معقول ومقبول حيث تحولت مناطق السلطة إلى عالم من الجنون وإن كان لا بد من نسبة الوضع لعالم السياسة فهو أحق بالوصف بالأخلاقية السياسية.المشكلة لا تكمن في الشعب، فهذا الشعب أبدع وعمر وتفوق حضاريا حيث أقام في أرض الشتات، وصمد وناضل وجاهد عسكريا في أرض الوطن حتى حظي بإعجاب كل أحرار العالم. المشكلة تكمن في قلة تنطعت لقيادة الشعب، وقادته فعلا، ولكن.... إلى الوضع الذي نعيشه اليوم، المشروع الوطني يُدمر، وتتحلل القيم الاجتماعية وتتحول غالبية الشعب إلى جموع من الجائعين والمتسولين والمرتزقة والمسلحين الذين يؤجرون دمهم لمن يدفع أكثر والسياسيين الذين هم إما جهلاء بالسياسة أو يطمعون بالسلطة والجاه، عندما يتقاتل مَن يُفترض أنهم رفقاء درب التحرير مع بعضهم البعض ويمارسون ضد شعبهم من أشكال القتل والدمار ما كنا ننعت إسرائيل حين ارتكابها بدولة الإرهاب، فهذا يعني أن قضيتنا الوطنية ليست بيد أمينة.

لأننا محكومون بنخبة هي خليط من الفشل والفساد والجهل والغرور والانغلاق الفكري، فإنه يوجد في مناطق السلطة وخصوصا غزة التي سموها المناطق المحررة، رئيس لا يعترف به مرؤوسوه، حكومة لا تحكم، أجهزة أمنية تمارس الانفلات الأمني، ثوار بلا ثورة، مجاهدون لم يعودوا مجاهدين في سبيل الله ولا في سبيل الوطن بل من أجل السلطة، وقادة فصائل وأحزاب لا يتعدى طموحهم تأمين راتب وسيارة ومرافق وان استطاعوا فكرسي في التشريعي أو في وزارة، منظمات أهلية تعتاش على رشوة الدول والجهات المانحة ويقلقها انقطاع التمويل أكثر مما يقلقها الهم الوطني، لجنة متابعة عليا (شاهد مشافش حاجه) أو شاهد زور على ما يجرى، تتقن دبج الكلمات والجمل ودقة المرفوع والمنصوب والمجرور أكثر من الانشغال الجاد بإبداع حلول لمشاكل تتابعها منذ سنوات بالرغم من أن كل الفصائل والقوى الوطنية ممثلة فيها، حين يحدث كل ذلك هل يكون للعقل والعقلاء مكان تحت شمس وعلى شواطئ غزة البلد الأكثر جنونا في العالم؟ حين يحدث ذلك ماذا يتبقى من مقولة أن الدم الفلسطيني على الفلسطيني حرام؟

في ظل هكذا أوضاع، هل ستكون هناك مصداقية لأي خطاب فلسطيني ينتقد العرب والمسلمين لتقصيرهم في دعم الشعب الفلسطيني؟ أو ينتقد أمريكا والغرب لتحيزهما لصالح إسرائيل؟ كيف نطلب من الآخرين أن ينحازوا لقضيتنا الوطنية فيما أحزابنا السياسية غير منحازة لها حيث مصلحة الحزب والسعي للسلطة بالنسبة لهم أهم من المصلحة الوطنية؟ ألا يخفف ما يجري في شوارع غزة والضفة من المسؤولية عن إسرائيل لما اقترفت من جرائم بحق الشعب الفلسطيني أو يجعل الناس ينسون هذه الجرائم، لأن ما يجري يعني أن من دفعوا الشباب للقتال ضد إسرائيل لم يكونوا حريصين على المصلحة الوطنية بل كانوا يرفعون رايات الجهاد والمقاومة ليس في سبيل الله والوطن بل في سبيل السلطة.

يبدو أنه كتب على الشعب الفلسطيني، شعب البطولات والتضحيات، صاحب أعدل قضية في مواجهة أخطر مشروع استعماري استيطاني، أن يتحكم في مصيره مَن يملك المال والسلاح، وحيث أن من يتحكم بالمال والسلاح يتحكم بالقرار السياسي، وحيث أن المال والسلاح مصدرهما خارجي، فإن القرار الفلسطيني المستقل يصادر لمصلحة الخارج. كل ذلك يدفع للقول بأن المكونات الداخلية للنظام السياسي الفلسطيني وصلت إلى طريق مسدود من حيث القدرة على التوصل لقيادة ولاستراتيجية عمل وطني، مما يثير الخشية من تسوية سياسية للنظام الفلسطيني تطبخ وتسوى في الخارج ثم تفرض على الفلسطينيين.

بعد اثنتي عشرة سنة من سلطة حركة فتح حيث تعثر المسار السياسي للتسوية وعم الفساد، وبعد سنة من حكم حركة حماس حيث انغلق الأفق السياسي وعم الفقر وتفاقمت الفوضى، فهل كُتب على الشعب الفلسطيني أن يقع بالإضافة إلى الاحتلال تحت المطرقة والسندان، مطرقة الفساد السياسي وسندان الجهل السياسي؟

قد يقول قائل إنك تظلم النخبة السياسية والفصائل وتبدد كل أمل بالتوافق والاتفاق، وإنه تم الاتفاق على وثيقة الوفاق الوطني وعلى أكثر من 90 % من القضايا الخلافية ولم يتبق إلا القليل، كنا نتمنى أن يكون ذلك صحيحا ولكن...، إن كانوا متفقين على ما تسمى وثيقة الوفاق الوطني أو وثيقة الثوابت الوطنية فلماذا يتقاتلون في الشوارع؟ ولماذا يسقط أكثر من ستين قتيلا في أقل من شهر نتيجة الاقتتال الداخلي؟ وإن كانوا متفقين على وثيقة الوفاق الوطني، فلماذا لم يتوصلوا إلى اتفاق بالنسبة لحكومة الوحدة الوطنية؟ وإن كان تشكيل حكومة الوحدة الوطنية والتي هي بند من ثمانية عشر بندا تتضمنها وثيقة الوفاق الوطني، فمتى سيتم الاتفاق على البنود الأخرى وخصوصا بالنسبة لمنظمة التحرير؟

وإلى حين تشكل قوى سياسية جديدة متحررة من سطوة أيديولوجيا وأموال أطراف خارجية وأجندتها الخاصة، وهناك حاجة ضرورية وملحة لمثل هكذا قوى، إلى حين أن يحدث ذلك، نتمنى التوصل إلى اتفاق لحكومة وحدة وطنية، اتفاق حقيقي ليس فقط لرفع العتب وكسب الوقت والتحايل على الدعوة للانتخابات المبكرة، وان يتبع تشكيل هذه الحكومة القائمة على الثوابت الوطنية المنصوص عليها في وثيقة الوفاق الوطني، الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع إسرائيل وتحت رعاية الرباعية لتنفيذ خطة خارطة الطريق، لأن إسرائيل توظف كل يوم يمر دون العودة لمسار التسوية لتقوم بمزيد من مصادرة الأرض وتهويد القدس وفرض سياسة الأمر الواقع، لا يعني هذا أن إسرائيل جادة بالسلام أو أن خطة خارطة الطريق هي تجسيد لطموحاتنا، بل حتى نرمي الكرة في المرمى الإسرائيلي وننزع الذرائع من يد إسرائيل وكل الأطراف الخارجية التي تحمل الحالة الفلسطينية المسؤولية عن تعثر مسار السلام، ولهذا لا نستبعد أيادي إسرائيلية فيما يجري سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

نتمنى على الاخوة في حركة فتح التسليم بان حركة فتح ليست قدرا محتوما على الفلسطينيين وان التاريخ لا يصنع شرعية سياسية دائمة، وإن أرادوا الحفاظ على حضورهم السياسي عليهم الاعتماد على شرعية الانجاز في الحاضر وان يبددوا الصورة السلبية التي التصقت بهم نتيجة اثنتي عشرة سنة من السلطة، كما نتمنى على الاخوة في حركة حماس عدم الانزلاق نحو مشاريع دينية أممية على حساب المشروع الوطني، وألا ينخدعوا بالأصوات الخارجية التي ضخمت من فوزهم في الانتخابات التشريعية مصورين ذلك انتصارا للمشروع الإسلامي العالمي ويجب الحفاظ على هذا الانتصار بأي ثمن، إلى غير ذلك من الخطابات التي دفعت حركة حماس للتعالي على المشروع الوطني وقواه الوطنية، ونتمنى على حركة حماس أن تقول لحلفائها ومرجعياتها في الخارج، إن كانوا يريدون نجاح مشروع الإمارة الإسلامية فليبحثوا عن هذا النجاح في الدول الإسلامية المستقلة وذات السيادة، في مصر او الأردن او السودان أو أفغانستان الخ، أما في فلسطين فهناك خصوصية تجعل المسألة الوطنية والمشروع التحرري الوطني سابقة على أي مشاريع أخرى. في المجتمعات الإسلامية الأخرى يمكنهم تغييب البعد الوطني أو إلحاق الوطني بالديني دون خوف على الهوية الوطنية والدولة الوطنية، أما في فلسطين فيجب إلحاق الديني بالوطني، أي توطين الإسلام السياسي، وعندما ننجز مشروعنا الوطني التحرري ودولتنا الوطنية، آنذاك يكون لكل حادث حديث. حتى لا نظلم المقاومة الحقيقية يجب التأكيد بأن المقاومين والمجاهدين الحقيقيين أولئك الذين نذروا أنفسهم لمقاومة العدو هم براء مما يجري ويستنكرون ما يجري، وهناك تيار كبير داخل حركة فتح وداخل حركة حماس بالإضافة للمقاومين في الفصائل الأخرى تستنكر ما يجري، وهؤلاء المقاومون الحقيقيون يفترض بهم أن يخطوا خطوة للأمام أكثر من مجرد الاستنكار الصامت ويعلنوا صراحة أن ما يجري لا يعكس الموقف والقيم الحقيقية للمقاومة والجهاد وان ما يجرى يسيء للقضية الوطنية وللمقاومة والجهاد فكرا وممارسة.

وأخيرا لا بد من الإشارة لظاهرة ـ سنتطرق لها بتوسع في مقال قادم ـ وهي توظيف الجهاد ـ فكرا وممارسة ـ من جهاد في سبيل الله والوطن وفي مواجهة عدو خارجي إلى ورقة قوة وتمايز في حروب أهلية، هذا ما جرى بالنسبة للمجاهدين الأفغان سابقا وبالنسبة لحزب الله في لبنان وحركة حماس في فلسطين حاليا.

* كاتب من فلسطين
Ibrahem_ibrach@hotmail.com